أَزِقَّة الفُقَرَاء

شريهان سماحة

احتضر بداخله وريد السعادة بقربهن، فرسمت عيناهُ الدامعة في لوحة وجوههن الوداع، لتبعثها له عيونهن الغافلة بضحكاتٍ صعدت للسماء.. لا تعلمن بأن هذا وداعهُ المخطط له في زمن ضاع فيه حقوق الفقراء، وبح صوتهم من أجل البقاء مع عالم لهو الأغنياء..

سَارَ مرغمًا قبل أن تفضحه ملامحه المغمومة وتكشف لهن سر الغياب، فهن يرونها رحلة استجمام من عبء مسئوليتهن التي فُرضت فوق كاهله لتمحي وهج شبابهُ وتبدله بشيب الكهلان، وهو يراها بأنها رحلة آلا عودة!

استند يأسًا برأسه على زجاج النافذة المجاورة له في إحدى سيارات الأجرة التي انتزعته من أحضان الأم والشقيقتان إلى عمق المجهول الذي يجهل خفاياه، ولكن ما يعلمه جيدًا بأنه الطريق الوحيد لنجاة صلة رحمه من مستنقع افتقارهم الذي بات يحاوطهن بأنيابه السامة.. حينها تدفق الماضي بغزارة يعيد ما مر عليه من بؤس وعسر صدأ روحه من بقاياه..

توفي والده بعد أن ترك له في أواخر العقد الثاني من العمر بورث ينوء من ثقله الجبال، أم كفيفة تحتاج لجراحة تحقق اشتياقا نخر فؤادها لرؤية وجوه أبناء تجهل ملامحهم منذ مخاضهم، وشقيقتان كالروح والريحان تحاوطهما خيوط البراءة، وطريق ممتد أمامهن للتعلم ينتهي بستر الخالق عليهما بزواج يصون العفيفات، ليضحي أمام عقله المسن بأن بطونهن الجائعة وملابسهن الحامية من صقيع الشتاء ليست معاناتهم الوحيدة، ويجب عليه الغوص في

البحور المظلمة للنجاة من أمواجها الهائجة والمضطربة فوق رؤوس من مثله..

كالفارس المغوار في وسط ضغوط الحياة، بذل ذلك المُعلم قليل الحيلة ما في جعبته بل ولم يبخل من صحته، دروسًا ليل نهار كأنه بات بهلوان في الكد والعناء، نوم يفوق عن نوم الفيلة، والحصيلة بعد سنوات شقاء لا يستطيع قبول أحد العرسان لهن في ظل أجواء الغلاء.

غاصت ذاكرته لعمق الماضي حين أطلق تلك الموافقة القاتلة لذاته الجريحة بعد أن خاض حربًا عنيفة مع خلاياه، عن إحدى العروض التي تخالف مبادئه وأسس تربيته الإسلامية التي نشأ عليها، وكانت تتوالى عليه دون كل أو مل من أجل وسامته النادرة، مجاهدًا بكل دفاعته المتصدعة لصدها..

ولكن ما لم يكن في الحسبان، هو زيادة ذلك التصدع لتتألم النفس وتنكسر قوته المزعومة بداخله، حين شاهد خلسة دمعات حزن شقيقته في انفرادها عن الجميع، لتغترب بمشاعرها عن عينيه عندما علمت بعدم اتمام ارتباطها وهي على مشارف عامها السابع والعشرين لقلة المادة بين كفاح شقيقها الغير مُجدي..

نزعه صوت سائق الأجرة من مرارة الماضي حين تمتم بنبرة هادئة له بوصولهما لمكانه المنشود..

تطلع بعينيه الشجية أمامه فشاهد حافلة الرحلة المنشودة لمدينة شرم الشيخ السياحية.. والتي حجز بها خصيصًا من أجل الذهاب

إلى هناك، والزواج من الأجنبية التي ستنتشل بأموالها الغزيرة عائلته من وباء الفقر اللعين..

تجرع ما في حنجرته ببطء عندما أيقن أن بداية طريق اللاعودة ضحى أمام مرآة عينيه، وأن النفس يجب أن تروض على ما لا تؤمن به من أجل أرواح باتوا لقلبه الداء والدواء.

هم يترجل من مقعده بعد أن أعطى سائقها بعض الأموال المستحقة نظير خدمته المحدودة، ابتعد عنها يجر خلفه حقيبة ملابسه المعدة من أجل الاكتفاء، إلا أنه تفاجأ برنين هاتفه يصدح عاليًا ليحد من أقدامه المتجهة تجاه تلك الحافلة المنتظرة بشوق لأعضائها للقيام برحلتها المنتظرة..

شاهد على لوحته اسم صديقه المقرب صاحب فكرة بيع النفس للأجنبيات من أجل متطلبات العيش; وصاحب العرض السخي عليه بالزواج من شقيقة زوجته الأجنبية..
فأجابه مندهشًا:
-ما الأمر الضروري للاتصال الأن فموعد وصولي لديكم لم يحن بعد؟!
زاد اندهاشه للقصوى حين توالى صوت حسين على أذنه بدمعات حارة أقرب إلى الأنين المتصاعد:
-لا تأتي صلاح، أرجوك توقف وابتعد قبل أن يتلوث جسدك مثلي وتتسرب حياتك للإبد!!
تخبطته الحيرة من حديثه الغير واضح فهتف بهلع:
-ماذا هناك يا حسين، استدعي ما عندك؟!

بكلمات تائة وعقل نادم صاح قائلاً:
-لقد قمت بإجراء تحليل طبي نتيجة أعراض إعياء شديدة منذ أيام، أتضح بنتيجتها الآن بأنني مصاب إيدز.... مسترسلا حديثه بنحيبٍ حاد:
-صلاح أنقذ نفسك أرجوك، علمت بأن شقيقتها مصابة مثلها، لا تفعل مثلي ولا تهدر حياتك من أجل عائلتك فهن...

أغلق المكالمة فما أنصت إليه يكفي، أصابه الضياع وكاد يختنق، فرمق سائق الحافلة الذي ينتظره بلهفة بنظرات يأسه تحوطها سحب دمعات حارة تجمعت للسقوط، التفت على إثر تساقطها واحده تلو الأخرى برأسه لطريق العودة!

ما بين إقبال على الموت والرجوع لبؤس موت أشد، كانت مكنوناته المشتتة وأقدامه المنتظرة لقراره الحاسم..

حينها ظهرت دمعات شقيقته المتوارية عنه، لينهش عقله مقولات تلك الذئاب البشرية المحيطة بهم عن سبب تأخر زواجها، ليبدأ كل من له القدرة على نسج الأكاذيب والشائعات المفبركة بغزله حول عنقها، ليلهوا أوقات فراغهم على حساب شرفها العفيف..

في تلك اللحظة خاصة، احتقن وجهه متخذًا عقبها قراره الحاسم والصادم، آلا وهو التوجه لذلك الباص مقتنعًا باقتناع تام بأن التضحية لم تبدأ الأن بل بدأت حين تخلى عن مبادئه وأسس تربيته الدينية..

"وحينها لم تكن النفس أهون عليه من روحه الجريحة"